إشكالية التّكامل بين الأنثربولوجيا وعلم الكلام الجديد

أ.خولة جهاد دمبري

طالبة دكتوراه جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

تتجّه العلوم الإنسانية والاجتماعية اليوم للتّركيز على الدّراسات النّفسيّة "فردا" والمجتمعيّة "علاقة"، والتي تتمحور في فكرتها العامّة حول الإنسان ككيان خلّاق وظاهرة أخلاقية عبقرية متفرّدة تستدعي الاهتمام الدراسي، بإثبات موقعيّة الإنسان الحرّة وتأثيره الفاعل في الكون ابتداء من بنيته "الذّاتية" النّفسية والفيزيولوجية، إلى علاقته "الغيرية" ببني جنسه والثّقافة و الطبيعة والكون، وتسعى ـهذه العلومـ من خلال الكمّ الهائل لمعطياتها المعرفية المتأثّرة بحركة الإنسان اللانهائية في البحث عن تكامل معرفي تفرضه التداخلات الموضوعاتية والمنهجية التّي تشكّل وحدة تحاكي بنية الإنسان الطبيعية، سواء على مستوى التنظير العقلي أو الممارسة الإجرائية؛ أي تكاملا بين العلوم الطبيعية والتّقنية وبين العلوم الإنسانية والاجتماعية، إذ صار يشكّل كلّ مجال منها وحدة علمية بحدّ ذاتها ولكن تبقى بينها فجوات بحكم خصوصية كلّ علم وتفرّد منهجه وطريقته، ما يفقده التّكامليّة فعاليتها مع باقي المجالات العلمية، وهو ما يتعارض مع ضرورة تواصّل العلوم، فينتهي العلم إلى القصور عن إفادة كيان الإنسان ذي الأبعاد الأساسية؛ المادية والعقلية والمعنويّة والرّوحيّة.

ولاشكّ أنّ ظاهرة التّكامل أصيلة بالتّراث الإسلامي، إذ حمل العلماء منذ عصور ألقابا مجتمعة يمكن وصفها اليوم بتعدّد التخصّصات، فقد كان الفيلسوف هو نفسه الطبيب والأصولي والمؤرّخ والرّحالة والقاضي والمتكلّم والفقيه والمفسّر وغيرها من الألقاب والتّي ميّزت العلماء المسلمين وأثبتت إبداعهم وثراءهم، وفي العصر الحديث فقد فرض التوسّع الّذي فرضه اتّساع فصول المعرفة وتعدّد التخصّصات لترتيب المعرفة وتنظيم توسّعها، لكنّ التّخصّص قد قتل الوحدة العلميّة والتّرابط بين أجزاء المعرفة وغدا قضيّة مهمّة تستدعي إيجاد حلّ فكانت فكرة التّكامل المعرفي إحدى الحلول لضبط هذه تشظية النتائج العلمية والبحث عن الرابط الكامن في أصلها.

وقد توصّلت العلوم الإنسانية والاجتماعية عبر أبحاثها إلى نتائج مبهرة عن طبيعة الإنسان وسلوكه وطريقته ـبالأخصّـ في التّعامل مع قوى الطبيعة وبنية تفسيراته التّراكمية التي أنتجت أديانا وأساطير وأنساقا دينية، واتجاهات ومدارس تفسيرية ساهمت في تطوير الحضارات الإنسانية على نحو معيّن تابع للبنة التّأسيس الدّيني والعرفي والمجتمعي، ومن هذه العلوم: الأثنوغرافيا، علم النفس، علم الاجتماع الانثروبولوجيا بفروعها (الأركيولوجيا، الأثنولوجيا، علم اللغويات...)؛ ركّزت هذه الأخيرة على الإنسان ككيان حرّ وابن بيئة وفرد في شبكة المجتمع وأصل العمارة والحضارة، بالاعتماد على مناهج خاصة.

وقد كان علم الكلام الإسلامي منذ نشأته علما يقف بالإنسان في إثبات عقيدته والدّفاع عنها وتبيينها بالمناهج المتداولة في كلّ عصر ابتداء من المنهج النّقلي والعقلي والجدلي والتجريبي والذوقي ... وغيرها، معتمدا على التكامل بينه وبين العلوم الإجتماعية، ساعيا في طوره النّشوئي إلى إخضاع البحث العقدي إلى مناهج هذه العلوم وإجراء علاقة تكاملية بينها والاستعانة بنتائجها التقريبية والنّسبية في محاولة لتنظير الظواهر البشرية، ومستندا في ذلك إلى عقد وحدة بنائية للإنسان المتديّن.

لكن السؤال الجوهري الواجب طرحه، هل هناك امكانية منهجية ومعرفية لصياغة التّكامل بين العلوم المعاصرة التي لم يكن لها باع طويل في الحضارة الإسلامية؟

وهل التّمثيل للتّكامل بعلم الكلام الجديد والانثروبولوجيا بصفتهما علمين حديثين لازالا في طور الاكتمال؛ يبلور نموذجا ناجحا افكرة التكامل بين العلوم الاسلامية والانسانية؟

من ناحية أخرى هل يمكن أن يتمّ التكامل بين علم إنساني بحث وأوروبي الأصل أن يتكامل مع علم إسلامي مرتبط بالنّص المقدّس؟

وقد ارتأيت في هذه الدّراسة أن أجري مقاربة بين علم الانثروبولوجيا وعلم الكلام الجديد في نقطتين عامتين:

الأولى: في إمكانية التّأصيل للعلم بالتأريخ العربي الأدبي (الإسلامي) وأقدمية احتكاكه بإنسان المنطقة العربية وغيرها، للتحّقق من ارتباط الانثروبولوجيا _منذ قرون_ بالقرءان وإسقاطاته، والسّنّة النبوية وأخلاقياتها، والرّوح الإيمانية وتطلّعاتها.

الثانية: طرحت قضيّة الاستفادة من مناهج العلوم الانسانية والاجتماعية المعاصرة ونتائجها في قضيّة تجديد علم الكلام، ما يجعل للفكرة واقعا محتاجا إلى قراءته والتحقق من مكانيته من خلال التكامل.

الثالثة: محاولة إلقاء الضّوء على فكرة استخدام المناهج المتداولة في علم الأنثروبولوجيا في تطوير الدّرس العقدي على مستوى الضّلع الموضوعاتي والمنهجي والخطابي في علم الكلام الجديد، وإثبات أو نفي نجاعة هذه التّكاملية بين علم إنساني وضعي، وعلم يرتبط في الأساس بنصّ الوحي السّماوي.

حين قاطع الإنسان القوى الخارقة والأسطورية في حلّ مشكلاته متّجها إلى العلم ونظرياته فقد تحوّل بتغيير زاوية الوعي بنفسه إلى دارس ومستطلع ومراقب لحاله، ولحال الإنسان المتكّل إلى الخرافة سابقا وتحليل آثاراها وبنية الإنسان المؤمن بها، وتتبّع تطوّره البيولوجي والفيزيولوجي والعرقي وهو ما يسمى بالأنثروبولوجيا[1]؛ وهو مشروع أو "محاولة لدراسة الإنسان دراسة علميّة شاملة في مختلف المجتمعات بتوخّي مناهج الملاحظة، والمعايشة، والمشاركة للرّصد الشّامل والمحدّد لسلوكيات وميولات، ومواقف الجماعات المبحوثة وراء الظواهر والتعبيرات المعلنة"[2]، منطلقا من الحياة البدائية إلى القرن الواحد والعشرين، فهو كعلم قائم الأركان حديث النّشأة بدأ بملاحظات الرّحالة للعرق الأوروبي، ليشمل اليوم كل المجتمعا، مع ما لهذه الفكرة من مغالطات فقد كان للمجتمعات القديمة مراقباتها الخاصّة للشّعوب أثناء رحالاتها، ومدوّنات ضخمة في هذا الشّأن تجعل للعلم جذورا أصيلة تتجاوز نظريّة جدّته وحداثته الأوروبية والأمريكية، إذ تعود بعض الدّراسات بالأنثروبولوجيا إلى تأصيل إسلامي يساهم فعليّا في إثبات الطّبعة الخاصة للعقلية العربية والإسلامية والأمازيغية المغاربية وتخصيص زاوية النظر في هذه الدّراسات الإنسانية بما يتناسب مع الرّسالة الإسلامية ومهبط وحيها وتتبّع مداها.

فعلم الإنسان من أحدث العلوم الإنسانية إذ لا يتجاوز بمفهومه الغربي الحديث قرنا، في حين أنّ جذوره الأولى تمتّد في التّراث العربي الإسلامي إلى أكثر من ثمانية قرون على يد الرحالة القدماء[3]، فيشهد العالم الانثروبولوجي الأمريكي "Carlton.s.Coon بأنّ هذا العلم لم يكن بدعا على العرب الذين درسوا التراث الأدبي لأمتهم

1 _ anthropology: تعني كلمة أنثروبولوجيا حرفيا "علم الإنسان"، ولما كان الهدف النهائي لمعظم الدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية _وخاصة علم النفس والاجتماع _ دراسة الإنسان أيضا، صارت الانثروبولوجيا كعلم مستقل في حاجة إلى تعريف أدق. فهي: ذلك الفرع من دراسة الإنسان الذي ينظر إلى الإنسان من خلال علاقته بمنجزاته، ومع ذلك، فالانثروبولوجيا تعني في معظم أجزاء أوروبا: بيولوجيا الأجناس، أو الأنثروبولوجية الطبيعية. وذلك نتيجة الانشطار الذي حدث في العلم الشامل السابق. أمّا في أمريكا فيعرّفها بواس Boas: "تدرس الانثروبولوجيا الإنسان ككائن اجتماعي, ويشمل موضوع دراستها جميع ظواهر الحياة الاجتماعية والإنسانية، دون تحديد زمني أو مكاني. بينما يعرّفها كروبر Kroeber: أنها علم دراسة جماعات الناس وسلوكهم وإنتاجهم، وهي أساسا علم خاص بدراسة التاريخ الطبيعي لمجموع اوجه النشاط البشري التي أصبحت منجزاتها الراقية في المجتمعات المتمدنة _منذ زمن بعيد_ ميدانا للعلوم الإنسانية. ويعرفها رالف لينتون Linton: بأنّها دراسة الإنسان وأعماله.

إيكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفلكلور، تر: محمد الجوهري، حسن الشامي، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1873، ص 49_50.

2 _ فرانسوا لابلانتين، مفاتيح الانثروبولوجيا، تع: حفناوي عمايرية، د.ط، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، ص 7.

3 _ مقال: زكي محمّد إسماعيل، التأصيل الإسلامي لعلم الإنسان، مجلّة الأزهر، ج 9، س 63، رمضان 1411هـ/ مارس _ ابريل 1991م، ص 1046.

كرحلة أحمد بن فضلان[1] في وصف أسلاف الوثنيين لسكان شمال غرب أوروبا الحاليين، ورحلة ابن بطوطة عن الأخلاق والعادات التي كانت تعيش من مراكش إلى الصّين، وسيجد العرب تحليل المواد الأنثروبولوجية مألوفا لديهم، فقد أدرك ابن خلدون ما لم يدركه أغلب العلماء المتأخرين من أن بين البيئة وطرق المعيشة والبناء الاجتماعي علاقة سببية[2]وغير ذلك من الأمثلة، ويمكن تعداد بعض الأعمال التي تعضّد هذا القول، إذ "يميّز العلماء ثلاثة اتجاهات في مسلك الاثنوغرافيين المسلمين من الرحالة الرواد، **الاتجاه الأول**: من خلاله بجمع المادة الوصفية من عديد من أقطار العالم الإسلامي ويمثل هذا الاتجاه كتابات الاصطخري[3] (ق10م) وابن حوقل والمقدسي وابن جير وابن بطوطة وابن خلدون، **الاتجاه الثاني**: يركز فيه الرحالة على وصف قطر واحد تتوفّر على دراسته كالهمذاني في كتابة صفة جزيرة العرب، والبيروني الذي تخصص في وصف الهند من مقولة، مقبولة للعقل أو مرذولة، وأحمد بن فضلان في وصفه الرّحلة إلى بلاد التّرك والخزر والرّوس والصّقالبة كمنطقة ثقافية مشابهة. أمّا **الاتجاه الثالث** والأخير فيظهر في المعاجم والموسوعات الاثنوجرافية والجغرافية مثل كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، ونهاية الأرب للنويري، وصحيح الأعشى للقلقشندي، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، وهو موسوعات ومعاجم تهتمّ بوصف البلدان وذكر تواريخها وأحوالها وعاداتها وأعرافها ونظمها وشؤون عمرانها"[4]، دون أن نسى الرحلات المغاربية كالرّحلة الورتيلانية للحسين الورتيلاني، ورحلة ابن حمادوش، ووصف إفريقيا للحسن الوزان... وغيرها.

ولكن المطالع لهذه الإدعاءات يدرك أنّها انفعالات حماسية تنسب العلم إلى العرب والمسلمين في الوقت الذي لم يتخذ فيه هذا العلم مسمى أو أصلا وبالتالي فلا يمكن الحكم على مثل هذه المقاربات التاريخية أو المتفرقة في كتب التاريخ والاجتماع والرحلات مسمى الأنثروبولوجيا.

أمّا عن علم الكلام الجديد فقد اختلف في مفهومه وتحديد أجلى معالمه التي يمكن وصفها بأنها في طور الاكتمال والنّضوج، إذ أنه علم لازال يبحث عن مشروعية وإثبات في مقابل علم الكلام القديم وتبيان موقعه منه، وقد مثّلت محاولات تطوير الفكر الديني في مرحلة ما بعد النهضة بذورا أولى لهيكلة جديدة للكلام تطرح القضايا

---

1 _ هو أحمد بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي، عالم إسلامي من القرن العاشر الميلادي، كتب وصف رحلته كعضو في سفارة الخليفة العباسي إلى ملك الصّقالبة سنة 921م، قام بأقدم وصف أجنبي لروسيا كتبه عام 922م.

2 _ مجلة الأزهر، المرجع السابق، ص 1404.

3 _ أبو القاسم إبراهيم محمّد الكرخي، من رواد علماء البلدان الجغرافيين، نشأ في اصطخر (مدينة قديمة جنوب إيران) ونسب إليها، عاش في النّصف الأوّل من القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي)، خرج سنة 951 ليطوف البلاد مبتدئا من بلاد العرب إلى الهند ثم الى سواحل المحيط الأطلسي، من أهم مؤلّفاته: مسالك الممالك، صور الأقاليم.

4 _ مجلة الأزهر، مرجع سابق، ص 1402.

المعاصرة وتصنّفها وفقا للمباحث الكلامية القديمة أو بتطويرها أو مائل مستجدة، وقد اتجه هذا التحديث إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية:

1_ صفّ يرفض أي تعديل أو تغيير على منظومة الأوّلين.

2_ صف يدعو لقطيعة ابستمولوجية بين الكلام القديم والجديد.

3_صفّ يوازن بين حاجة علم الكلام إلى التّجديد انطلاقا ممّا ترك الأوّلون والاستفادة من جهود المعاصرين وما بلغته العلوم من تطوّر المناهج والقضايا.

أمّا عن تعريفه فلا يمكننا البتّ في شأنه بحدّ دقيق شامل مانع، وما قيل فيه إلى الآن لا يعدو محاولات جدّية في بيان معالم تشكّل وتطور لنسق ومناهج ومضامين وأهداف علم الكلام بما يتوافق مع التطوّرات المعاصرة ومجالاتها، وحتّى هذه اللّحظة، مازال هناك نقاش بين المهتمين حول تعريف علم الكلام الجديد، والّذي "أضحى عنوانا للاتّجاه الحديث في إعادة بناء علم أصول الدّين"[1]، وبدأ يبلور رؤية خاصّة تتّخذ من لفظ الجديد عنوانا لمدرسة معيّنة تخالف فحوى عنوان مقابل: التّجديد في علم الكلام، ورغم بساطة الفرق وسطحيته ولكّنه يحمل دلالات ضخمة تجعل منهما مشروعين متعارضين في بعض التفاصيل.

ويبرز وحيد الّدين خان حقيقة مضمون علم الكلام إذ يرى أنّه: "محاولة لفهم وحدة العلم الموحى والعلم الكوني، وفهم الكون المجهول بالكون المعروف"[2]، وحسب رؤيته الكونية فإنّ علم الكلام _ابتداء_ يجعل منه اصطلاحا مستحدثا في القاموس الإسلامي الأصيل فضلا عن سوء فهم لطبيعة المضامين التطبيقية للمعقولات القرآنية واعتبارها تطبيقات على المعقولات الفلسفية البشرية كما رأى بها العباسيون في عهد التدوين وهو الخطأ المتسبب في تقسيم علم الكلام إلى قديم وجديد، لطبيعة المعقولات البشرية المتغيرة في مقابل المعقولات القرآنية الكونية الثابتة المشكّلة لعلم كلام قرآني، فقد صار بإمكاننا _إلى حدّ كبير_ تدوين علم كلام متناسق مع القرآن بعد حصول قطعية واتفاق واجتماع بين عالم الطبيعة المبني على الحقائق ومحكّمات القرءان وعلم الطبيعة المبني على القياس ورؤى الفلاسفة _على حدّ تعبير وحيد الدّين خان_ وهو ما كان يجعل القرآن وعلم الكلام شيئين

1_ عبد الجبار الرفاعي، علم الكلام الجديد وفلسفة الدين، ط1، دار الهادي، بيروت، لبنان، 1323هـ_2002م، ص 27.

2 _ وحيد الدين خان، تجديد علوم الدين مدخل لتصحيح مسار الفقه والتصوف وعلم الكلام والتعليم الإسلامي، تر: ظفر الإسلام خان، ط1، دار الصحوة، القاهرة، 1406_1986، ص 66.

متغايرين[1]. فمفهوم علم الكلام الجديد بطور التشكل والتطور مما يسمح للباحثين والمتخصصين إبداء آرائهم وطرح مشاريع أو أفكار تمر على مسار التشكّل.

وفي هذه المباحثة؛ نطرح فكرة التّكامل المنهجي والمعرفي بين الانثروبولوجيا بصفتها علما حاضنا للإنسان وتفاصيله، وعلم الكلام الجديد بصفته وسيطا ومعرّفا إيمانيا معرفيا وروحيا بين الله والإنسان في بعده الأعلى، وبين الإنسان والكون في بعده الأشمل، وبين الإنسان وأخيه الإنسان في بعده الأمثل.

وعلم الأنثروبولوجيا ماهو إلّا صياغة معرفيّة لنتاج تفكير الإنسان بالإنسان ومجتمعه، وهو أمر قديم قدم الإنسانية ذاتها وهو إرث مشترك بين كافة أصقاع العالم[2]، ويلتقي مع السؤال الأزلي الميتافيزيقي الديني الهوياتي العقدي الإنتمائي المبثوث في قوله تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون"[3] الذي يطرحه كل إنسان منذ بدء الخليقة عن: هل هناك قوّة خارقة خارجة عن إدراك الإنسان؟ أين الإله؟ كيف أتواصل معه وأفهمه؟ هل أرسل لنا وسائط؟ من أين أتينا وإلى أين نمضي وما المصير؟ وغيرها من الأسئلة الوجودية والغيبية التي تلاحق الذهن الواعي وهي نقطة أصيلة بالإنسان تلتقي مع تساؤلاته الأنثروبولوجية والاثنولوجية حول تتشابهه وعلاقته بالإنسان والمجتمع، وهذا يشكّل مدخلا دقيقا للتكامل بين علم الكلام كعلم مجيب عن التساؤلات الدينية مع علم الانثروبولوجيا كمجيب عن التساؤلات الاجتماعية والثقافية.

وبناء على هذا، يمكن اعتبار المتكلّم والمعلّم (بصفة أخصّ) محور العملية المعرفية والتّبليغيّة والوسائطيّة في نقل المعلومة الإيمانية من أوامر ونواهي ونصائح وعقوبات وتحذيرات واضحة إلى المخاطبين بها، بما تحصّل له من معرفة اكتسبها بالبحث والمدارسة والاجتهاد والصّبر الإخلاص، ممّا خوّله تبني منصب المرشد والمعلّم والموجّه والمبلّغ والإمام، وهذا يفرض عليه أن يدرك واقع المخاطبين الوقائعي والمعنوي وملابساته السّياقية والتاريخية، بالموازاة مع اتساع مدركاته المعرفية والمنطقية، وامتلاكه للحجّة والبراهين الدامغة، وإتقانه لفنون المناظرة والمحاضرة والحوار والمجادلة. لكن، هناك زاوية غائبة عن "متكلّمي اليوم" أو "المفكرين" بالإطلاق المعاصر فقد صار مسمى المتكلم ضيّق المضمون ومحدود الدّلالة إذا لا يخدم الموضوعات العقدية الواسعة واحتكاكها بأغلب المجالات المعرفية الإنسانية ممّا لم يعد يستوعب هذا الاتساع.

وقد يشابه عمل الباحث الانثروبولوجي عمل كلّ من المؤرخ وعالم الاجتماع والاقتصاد والجيولوجي وباحث الآثار الّذي يدرس صيرورة مجتمع معين وأطوار تحوله الثقافي والدّيني والنفسي والجسماني والبيولوجي غير أنه يتوسع

1 _المرجع نفسه، ص_ص 66_68.

2 _ مفاتيح الانثروبولوجيا، مرجع سابق، ص 9.

3 _ العنكبوت، 20.

على ما سبق لطبيعة منطلقه الذي ينطلق من الإنسان البدائي والقبائل السّائرة في طريق الانقراض للبحث عن أصل مشكلة ما أو ظاهرة دينية معيّة، أو تتبّع بدايات ظاهرة معينة تساعد على التنبؤ بها للتحكّم بعواملها في النهاية، ما يمكّن للمتكّلم أيضا الخوض في مسلك الباحث الأنثروبولوجي.

فالعالم اليوم قد غدا قرية صغيرة بفعل التكنولوجيا والانتقال السّهل السريع للمعلومة لكن تبقى هناك خصوصية معينة في كل أمة ومجتمع وقطر، فعرض الفكر العقدي في بيئة معينة يختلف عن طريقة طرحه في بيئة أخرى وإن كان المضمون موحّدا والغاية ذاتها، وهذا ما سعى القرءان إلى تجسيده من خلال الخطاب العقدي العام لكل النّاس، وتخصيص بعض الآيات بالذين آمنوا.

وفي الحقيقة، فما سبق من محاولة ربط عمل المتكلم الانثروبولوجي وتواصلهما في الابتداء بما انتهى الآخر؛ يظل احتمالا علميا غير مؤسس بما يكفي ليكون حجة تعطي لهذا التكامل فاعليته، غذ أنّ لاهما ينطلقان من طريقين متوازيين، إذ يجعل الإنثروبولوجي الإنسان محور العلمية البحثية مسقطا أي قدسي أو غيبي أو إلهي واعتبار الظاهرة الدينية عملا إنسانيا او معطى نفسيا قام الإنسان بخلقه بناء على توافقات مع الزظواهر الطبيعية والارتباك النفسي إزاءها، ودراسة النبوات على أنّها تحصّلات بشرية لمرتبة لم يكن للاصطفاء فيها والتدخّل الغيبي دور، فينتهي إلى إسقاط أي شرعية عن الأديان والنبوات والمقدسات، وهذا ما يخالف تماما منطلق المتكلم غذ يبدأ من فكرة الألوهية كمركز لعملياته التعريفية والتبليغية وأنّ الغنسان ملزم بالبحث والإيمان والتدرج إلى يقين هذه الحقائق الإلهية، ففي هذه الحال قد يكون التكامل بين النتائج لكلا العلمين ضربا من التناقض أو اللاتكامل.

وفي اجتهاد اوّلي في استقراء آيات القرءان؛ فنجده قد مايز في منهج عرض العقيدة وأساليب إيصال الفكرة المقصودة، بأساليب البحث الانثروبولوجي واهتماماته وما يهدف للوصول إليه _إن صحّ القول_ إذ مزج بين ترغيب وترهيب وأسلوب قصصي (نبوي وتاريخي)، أو بالمجادلة بالتي هي أحسن، وكذا بالمنهج العلمي وعرض دلائل القدرة بعرض عقلي منطقي استدلالي... وهكذا، حتى إن اختلاف موضوعات القرآن وطول وقصر آياتها واختصار المضمون أو التعمّق والتّفصيل به قد اختلف بين مكّة والمدينة وبين واقع الدّعوة السريّة والجهرية، وبين الجماعات الصّغيرة والدّولة، كما أن المنهج القرءاني قد اعتمد في توصيفه على بداية الخلق والحياة والموت وبداية الإنسانية (آدم حواء، قابيل وهابيل) كما الأجناس (الأعراب، بنو إسرائيل، قوم لوط) وطبائع البشر ونفسيّاتهم (إخوة يوسف، امرأة العزيز، نسوة المدينة، الأعراب) ووجّه الاهتمام إلى الذّهنيّات المجتمعية (نموذج مريم مع بني إسرائيل، حادثة الإفك مع المجتمع العربي)، والتشريعية والمؤسساتية كتأثير الملك في دين المجتمعات (فرعون، سليمان، الملكة سبأ)، كما فصّل في الأديان السماوية والوضعية (دهريّة، وثنية، شركية، تثليثية توحيدية)، ونموذج المعلم الناجح وطرق تربيته للأنبياء كقدوة لورثتهم من العلماء فيما ما يختصّ بالقيم (نوح، بونس، يوسف، موسى،

محمد)، وأبقى ذكرا للآثار العمرانية وأقوامها (قوم عاد وثمود)، وتوثيق الحقائق بالاستدلالات العلمية والمنطقية (لا يسعنا المقام لذكرها)، فنجد من خلال هذا المزيج المميز من الموضوعات والمجالات "قبسا" من التكامل المعرفي المؤصّل في النّص المؤسّس (القرءان الكريم، السنّة الصحيحة الصريحة الموافقة لمضمون القرءان)، فقراءة واحدة القرءان تثبت هذا التكامل الذّي صار أمر تبيانه أكثر وضوحا بعد اكتمال العلوم ونضجها واستقلالها في كيانات لها تعريفها وموضوعها ووظيفتها، كعلم النفس الاجتماع والعلم العمران الهندسي والنفسي، علم مقارنة الاديان، علم التاريخ والآثار، علم الأخلاق، الفلسفة، العلم التجريبي (ابتداء من الميكروبيولوجيا إلى علم الفلك)، وغيرها من العلوم التي تساهم في فهم الإنسان كظاهرة أخلاقية فردية مكلفة بالاستخلاف في الكون بلوغا إلى تكوين تصوّر علمي للكيان الحضاري والإعماري في تكتله.

فالانثروبولوجيا بأنواعها ومجالاتها ومناهجها وقد شكّلت مدخلا واسعا ومهمّا في اكتشاف معلومات أكبر عن الإنسان المخاطب بالعقيدة المعرفة، فمثلا تختلف طريقة المشارقة في التلقّي والتفاعل مع العقيدة عن طبيعة تلقي وتفاعل أهل المغرب العربي أو الإفريقي، وتختلف أيضا عن المجتمع الأوروبي والأمريكي والآسيوي وربّما القطبي بحسب تاريخ الشعوب ولغتها وثقافتها، "ولعلّ في دراسة الآثار الفرعونية _مثلا_ والمسيحية والإسلامية من مصر ما يلقي ظلالا على بعض أصول عادات شعب مصر وقيمهم وموروثاتهم الشعبية"[1]، ولا شكّ أنّ أصل البشرية واحد؛ لكنّ هذا لا ينفي عنه التّغييرات الّتي تركها المناخ والزمن والجغرافيا والخرافة وتطور التفكير والوعي والنظم السيّاسية الاقتصادية والفلسفات السّائدة والأديان السّماوية والوضعيّة المتعايشة مع القيم العرفية في رسم الخارطة الذّهنية وتأثير العلم ومكتشفاته على جينات المجتمعات المتطوّرة عن بقايا جينات القبائل البائدة، وقد اعترف القرءان بوجود هذا الاختلاف في قوله تعالى: "يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم"، فهذه الآية تحثّ على تحقيق منهج تفسير الطبيعة البشرية في شتى مظاهرها ومقارنة عقلياتها، وبالتّالي فالمتكلّم أو المفكر اليوم بحاجة إلى معرفة هذه الجوانب المهمة قبل اختيار الطريقة المناسبة في توصيل المعلومة الدينيّة (الأوامر والنواهي والقيم).

أمّا عن التكامل المعرفي في المنهجية الإسلامية حسب فتحي ملكاوي في كتابه منهجية التكامل المعرفي _مقدمات في المنهجية الإسلامية_: "فهو التكامل في المصادر والأدوات، وتكامل المدراس والتكامل في الطبائع والوقائع المشهودة والمثل والقيم المنشودة، والتكامل بين الوصف الكمّي بالتّقدير والحساب الدقيق لموضوع التّفكير أو لمشكلة البحث، والوصف الكيفي الّذي يعطي الدلالات والمعاني العميقة، وغير ذلك من وجوه التّكامل المعرفي والتّعامل المنهجي"[2]، وتتعدّد مناهج الانثروبولوجيا بين العمل النظري والتطبيقي، ولعلّ اهتمام علم الكلام الجديد

---

1 _ مجلة الأزهر، مرجع سابق، ص 1048.

2 _ قراءة في كتابه، نقلا عن: www.nama-center.com

بالجانب المنهجي الميداني والتوسّل بأدواته سيحقّق تجربة جديدة وأكثر فاعليّة، فيما يتمثّل بالملاحظة والمشاركة والمعايشة والمقابلة والمساءلة، والاستعانة بالإحصاء والمقارنة والاستقراء وتحليل المحتوى ... وغيرها، وهي طرق كان المتكّلم القديم ينتهجها من خلال احتكاكه بالمخاطبين وإقامة بعض المناظرات في الأسواق العامة والجلسات المسجدية كمناظرات الرازي، حتّى إنّهم كانوا يجرونها في أرض وبين شعب المخالف والردّ عليه بأسلحته نفسها وهو ما يبرر فكرة الاستفادة من مناهج وتقنيات البحث الانثروبولوجي في التعرف على الظاهرة الدينية عن قرب وحال المتديّن لتحسين الخطاب وتطويره وفقا لنوعية المجتمع.

من جانب آخر، وبحسب الدّراسات[1] فقد طوّع هذا العلم ليكون خادما وفيّا للاستعمار في استكشاف المنطقة وسكّانها قبل حملاته؛ أين يضمن لنفسه درعا خفيا بعد اكتساب معارف أولية لطبيعة الفرد وبيئته، مما حمّل هذا العلم اسم أنثروبولوجيا الاستعمار وسمعة سيئة جعلته ولوقت متأخر علما دنيويا ودونيا غربي المنشأ والمضمون ودخيلا على الأرضية المعرفية والقيميّة الإسلامية، وهو ما يجعل الاحتكاك أو البحث عن تكامل منهجي ومعرفي بين هذا الانثروبولوجيا وعلم الكلام الجديد مرفوضا عند الكثير ممّن يعترف بعلم الكلام جملة قديمه وجديده أو المتمسّك بصيغته القديم أو الرافض لهذا العلم أساسا، لأن التعامل مع علم الكلام هو تعامل مع النّصوص المؤسسة للعقيدة والمقررة لمضمونها باعتبارها سياجا مقيدا ومكمّلا ومترابطا مع الجانب التّكليفي ومبنيّ على أساسها.

وهنا وجب التّركيز على نقطة جوهرية يمكن أن تشكّل عقبة ابستمولوجية تعترض عمليّة التكامل وتضع لها حدودها خصوصية، فحينما بدأت الاهتمامات حول الانثروبولوجيا "أخذ السؤال حول كيف وكم تؤثّر العقائد على تشكّل النّاس وفهمهم للطّبيعة والعلاقات القائمة بينهم، ولعلّ النصوص الدينية وبالذات في الكتاب المقدّس بسبب إيرادها أوصافا وتفاصيل عمّا كانت عليه حياة أسلاف الشّعوب الحديثة في تصرفاتهم وأفعالهم الحياتية اليومية... فكيف يفسّر الإنسان علاقته بالطبيعية ويجيب عن الأسئلة المصيرية"[2]، فدراسة الظاهرة الدينية بتجريد من قدسيتها لدى الشعوب أو من خلفيتها الغبية واللاهوتية، والانطلاق من أنها أساطير أو فلكلور شعبي وطقوسي تلجأ في التطبيق المنهجي على تحليل الظواهر بمبادئ لا تتناسب مع قدسية أو ميتافيزيقية المادة المدروسة، الله والنبوة والوحي والمعجزات والبعث واليوم الآخر ستجرّد تماما خلال هذه الدراسات، وهي الأصول الدينية التي يسعى علم الكلام الجديد في إعادة طرحها بالاعتماد على جديد المعرفة والمناهج، وبالتالي فالنقد

1 _ أنظر: قصة الانثروبولوجيا، حسين فهيم / مقال: علم الاجتماع الاستعماري الانثروبولوجيا نموذجا www.eltwhed.com / دور الدراسات الانثروبولوجية في تبرير القمع والاستعمار www.9alam.com .

2 _ مقال: أبو بكر بن محمد باقادر، الدين والانثروبولوجيا، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، مؤسسة دراسات وأبحاث، 24 ديسمبر 2014، www.mominoun.com.

والتقييم والتقويم في عمليات التكامل مع العلوم أمر ضروري لضمان حفظ خصوصية الدين وتعاليمه بعيدا عن الإسقاط الحذافيري للجهود البشرية على النص القرءاني والتدقيق في المناهج الأنثروبولوجية في دراسة تراث الأمّة الدّيني، في حين أنّ دراسة نفسيّة المخاطبين بالوحي وتشكّل مجتمعاتهم لا يشكّل أي خطر معرفي على المصادر الأصليّة.

فقد تستثمر الانثروبولوجيا ونتائجها في تكريس الأنظمة السياسية بما يناسب طائع الشعوب ويمكنّ من تثبيت جذورها، كدولة استعمارية أو انتدابية، أو كأنظمة عادلة تطمح لتحضّر الإنسان ورقيّه أو كعصابات سياسية مافياوية تعبث بثروات الشعوب ومدخراتها الثقافية، إذ تمّ تسخير هذا العلم استعماريا كما سبق القول وهذا عامل مؤثر فعليّ (إيجابي أو سلبي) في ترسيخ العقيدة السّماوية أو الوضعية أو إبادتها بفعل حكم السلطان وسطوته ومخططاته ومناهج التحكّم التي يعتمد رسم خارطتها بناء على الدراسات الواسعة لذهنيّات المواطنين وأسلوب معيشتهم وتصوّراتهم إزاء الحاكم.

وكنموذج، فقد استفاد ابن تومرت من معرفته بطبيعة سكان شمال إفريقيا في دراسته للتاريخ والرحلات وتتلمذه على يد المشارقة وخبر اختلافهم وكثرة معتقداتهم، واستغل الأفكار الدينية المسيطرة على شمال إفريقيا آنذاك من الاستسلام للقدر وإيديولوجية الاستسلام وطاعة السلطان، والقناعة والتواكل، وانتظار المهدي فأعلن نفسه بطلا يجسّد الفلكلور المغربي، فتجهّز البيئة والإنسان بالايديولوجيا في تقبل فكرة المهدوية التي أوصلت ابن تومرت إلى قمة الهرم وتمّ نشر الأشعرية مذهبا موحدا للمغرب رغم بربرية ابن تومرت وقرويته فقد أضاف لنفسه ألقابا شريفة رفعت مقامه بينهم، وأسّس بناء على ذلك دولة دينية جديدة تناطح دولة الرّسول في المدينة، وأغرى البربر بالترّكيز على قبائليتهم وعاداتهم ليتجاوب مع مطامعهم واستغلهم للقتال والتوسع الحربي مسيجا نظامه بفكر عقدي يحمي الدولة والسّلطة [1].

قد تكون غاية هذا الطرح هو وضع فكرة التكامليّة بين هذين العلمين كإشكالية محورية لمحاولة أولى في تعديل الخطاب الدّيني وتطويرهّ إن عقديا أو فقهيا وتحديث مناهج التبليغ لتمكين الرؤية الإسلامية النظرية والتطبيقية السّلمية والتّسامحيّة بما يتوافق مع واقع المخاطبين وطبائعهم والآخر المجاور مخالفا كان أو مناصرا، وبما أثبتته الدّراسات الأنثروبولوجية لهذه المجتمعات فالاختلاف واضح من تفوقها فيما بينها في استيعاب التكنولوجيا وإبداعها أو إنتاج الفلسفة وانعدامها، وطريقة استجابة بعض القوانين وتطبيقها في حين تمرد مجتمعات أخرى وفشلها في تنظيم حياتها... الخ، ونختتم بكلام الدّكتور زكي إسماعيل: "إنّ الانثروبولوجيا يجب أن تنتهي إلى نتائج

1 _جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، تر: محمود عبد الصمد هيكل، د.ط، مطبعة الانتصار، الإسكندرية، مصر، دت، ص_ص 295_304.

يستفاد منها في مشكلات المجتمع الحديث، ويجب عليها أن تضع مناهجها تحت تصرّف العلوم الأخرى... وإذا كان علم الإنسان يتحدّى حدود الزّمان والمكان في دراسة للمجتمع البشري، فإن منطقة نفوذه العملية تتسّع لتشمل مجالات متنوعة كاللغة والبناء الاجتماعي، أنساق الثقافة والتعبيرات الجمالية والمعتقدات والقرابة وسائر أنشطة الإنسان الثقافية والاجتماعية ممّا جعل بعض العلماء يطلقون عليه (علم طبائع الشعوب)"[1]، كما نحتاج بكلّ جديّة إلى أن نركّز الاهتمام على التّراث العربي الإسلامي الثريّ الذيّ قد يعيد لنا الهويّة الضّائعة.

ابتداء من تأصيل لعلم أنثروبولوجيا إسلامي يحاكي واقع المسلمين وارتباطهم بدينهم ورؤيتهم لله والعالم والإنسان، ولا نكتفي بإجراء تكامل بين الأنثروبولوجيا بكونها واقعا علميا غربي المنشأ والفكر والتطبيق، وبالتّالي فالتّكامل بين المتقاربين أقرب لاتحاد النتيجة وموضوعية الغاية المرجوة منها. كما وأنّ علم الكلام الجديد قد استند في تجديده إلى منطلقات علمية ومنهجية غربية تجاوزت الخصوصية الكلامية الأصيلة ونحت بعلم الكلام المعاصر في صيرورته مع التجديد إلى نسق فلسفي لا يراعي في مجمله الاتصال المنطقي والمنهجي والتاريخي والإجرائي لتطور العلم.

كما أنّ الفكر الغربي في النّهاية مرتبط بأصوله وأسسه ونظرته الخاصّ إلى العالم والدين والألوهية والإنسان، وبالتّالي فالاقتباس والترجمة والنقل الحرفي للدلالات والمتداولات سيشكل عملية التكامل العلمي بين العلوم الوضعية والدينية من جهة، كما سيبرر طرح مثل هذه القضايا على شاكلة الإشكاليات قبل تقرير الحقائق كمسلمات ثابتة ومطلقة، ومنه فالأجدر بنا فتح الباب على بحث ينطلق من مقولة: "كل ما هو ثيولوجي فهو أنثروبولوجي"، لندرك مخالفات السير في البحث عن لصق لما يبدو تكاملا دون التأسيس لهذا التكامل.

تمّ بحمد الله

1 _ مجلة الأزهر، مرجع سابق، ص 1047.